تاريخ العلوم أن المفاهيم قد توجد وتتبلور بشكل ما قبل أن تستقلّ بمصطلحات خاصّة بها.

والسبب الثاني والأهمّ أنه يصعب تأويل مفاهيم بعيد عنّا أصحابها زمانا ومكانا انطلاقا من منظومتها الاصطلاحية فحسب. فقد يغرّنا الاشتراك في اللفظ بيننا وبين أصحابها للحكم على اتحاد في المضمون غير موجود. وقد يمنعنا اختلاف اللفظ بيننا وبينهم من إبصار تماثل في المحتوى. إنّه عود للمقارنة بين وحدتي قيس مختلفتين في التسمية ولا نعرف نسبة إحداهما من الأخرى. ولما كان شرط تأويل وحدتي القيس المذكورتين معرفة مطابقتهما للواقع الخارجي وملاحظة كيفيّة استعمالهما في قيس مقادير الأطوال كان من الضروري الانطلاق من ممارسة النحاة العرب لمنوالهم في العالم الخارجي لا الاقتصار على منظومتهم الاصطلاحية.

وإن كانت الصحاري والبراري والبحار بعض تجلّيات بعد المكان الذي يمكن أن نمارس فيه عملية القيس، فإن النصوص اللّغوية بمختلف أنواعها وبشكلها العفوي والخام هي العالم الخارجي الذي ينبغي أن نردّ إليه المفاهيم النحوية العربية. وننطلق من سؤال بسيط وأوّلي ولكنه لبساطته ولبداهته يخفي: كيف قطع النحاة العرب النصوص التي باشروها [1].

ومثلما نزعم أن ما يسميه الجمهور فوضى أو جهلا مطلقا ليس إلا تسمية حدسية لعجز الباحث عن تقطيع سلسلة من الأحداث بشكل ما، نزعم أن تقطيع النص اللغوي يمثّل أوّل إجراء يدلّ على أن الباحث بدأ يخضع الحدثان إلى نظام. إن النصّ اللغوي الخام حدثان لا يتناهى له طول شأن المستقيم في الرياضيات. لذلك فإن تجزئته إلى وحدات فارزة يعني تعيين نقطة بداية ونقطة نهاية وذلك أوّل شروط الحكم بوجود بنية. ويعني أيضا وجود كيان نظري مهما كان الوعي به حدسيا أو غير متبلور اصطلاحيّا، لأننا بعملية التقطيع نحكم بوجود أمر ما ثابت يتكرّر وراء الأحداث المادية الجديدة المتغيّرة اللامتناهية.

---

1 P.T.L. ص 21.